بين الأمس واليوم: الجرح الذي لا يندمل

دييغو ميلو كارّاسكو
ترجمة: إدريس ولد الحاج

في كتابه "الهويات القاتلة"، يؤكد أمين معلوف أن قدرا كبيرا من المشاكل التي يتخبط فيها العالم الإسلامي ليس مصدرها الدين بقدر ما يجب أن نضعها في إطار سياق أشمل، مرتبط بتدخل القوى الغربية واحتلالها لأجزاء من الشرق الأوسط، وكذا بصيرورات الاستقلال اللاحقة.
يكشف هذا الأمر عن ظاهرة امتدّت عبر حقب تاريخ طويل، بما أن المشاكل التي يشتكي منها الشرق الأوسط الإسلامي، ترتبط بسياسة التدخل المباشر التي ينهجها الغرب. ورغم أن هذه السياسة ليست بالعامل الأوحد، فإنها مع ذلك تشكل نقطة ارتكاز في ديناميات متشابكة واصلت تشكلها منذ القرن الثامن عشر. فعادة ما تتحدث كتب التاريخ عن هذا الأخير باعتباره القرن الذي بدأت تتبلور فيه أزمة العالم الإسلامي التي يتداخل فيها الاقتصادي بالترابي و المؤسساتي، إضافةً إلى التطاحنات العقدية التي تتخذ شكل مواقف ومزايدات سياسية؛ وهو ما سوف يتجسد مع الهيمنة التركية العثمانية في القرنين المواليين. إذن، فالعالم العربي الإسلامي سيتفاعل مع هذا الواقع الجديد، والمشاحنات المتبادلة بين العرب والأتراك لن تتأخر في الظهور، محملا كل طرف منهما مصائبه للطرف الثاني.

ستعرف الإمبراطورية التركية مرحلة مجد امتدت لقرنين من الزمن، غير أنها مع بداية القرن الثامن عشر، وبوصفها قوة إقليمية آنئذ، بدأت وضعيتها تعرف نوعا من التعقيد. فالزحف الأوربي صار يهدد حدود الإمبراطورية التي صارت تتقلص في منحى تصاعدي بطيء. في هذا المشهد، أصبح تمدد أوروبا يتقوى من خلال الانتشار التدريجي لقواتها في العديد من أرجاء المعمور، وضمنها العام الإسلامي. هكذا، في أواخر القرن 18، أضحى التواجد الفرنسي والانجليزي جزءا لا يتجزأ من تلك الفسيفساء المتشابكة. هذا الواقع الجديد سيشكل تحولا جذريا ارتباطاً بالبنيات السياسية والثقافية الجديدة التي ستفرض نفسها في مقابل بنية التقليد السائدة، والتي ستكون كذلك وراء تحولات ستنعكس على تطور المجتمعات المحلية، مما سيخلق وضعا معقدا ضمن مشهد لن تكون خصوصياته أبدا موضوع تفهم من طرف المستعمرين الجدد.

إن تواجد القوى الأوربية حمل معه أفكارا جديدة ستجد لها صدى قويا في أوساط النُّخَب، بالنظر إلى الاستياء العام السائد في المجتمعات العربية التي كانت ترى في وجود الأتراك تهديدا لهويتها، بينما لم يكن هؤلاء يطرحون فكرة التخلي عن تلك الهيمنة، مادام هناك رابط قوي يجمع بين الشعبين، متمثلا في الحاضنة الإسلامية. في هذا السياق، شكّل عامل التحديث الذي جاء به المستعمر عاملا مساعدا لبروز أفكار جديدة ظهر تأثيرها الجلي في الساحة العربية الإسلامية. بيد أنه منذ حملة نابوليون بونابارت على مصر، بدأت مظاهر التقدم الغربي تدخل تدريجيا. لقد رأى بعض المثقفين في ذلك "سرابا" أكثر منه واقعا، رغم أن هذا التصور لم يكن بالمهيمن؛ ذلك أن عدد المعجبين بالغرب كان أكبر، من أمثال رفاعة الطهطاوي (1801-1873)، الذي أُرسل إلى باريس على رأس بعثة علمية سنة 1826، والذي سيقوم بوصف ونقل كل ما شاهده هناك من مظاهر التقدم، حتى إنه رفع شعار: "ليكن الوطن محلا للسعادة المشتركة بيننا، نبنيه بالحرية و الفكر والمصنع". هذا الصدى المُعصرِنْ سيجد في محمد علي باشا [1805-1845] حليفا كبيرا، في الحالة المصرية، إذ سيجري الأخير سلسلة من الإصلاحات ذات الطابع المادي حاوَل من خلالها مد الجسور مع التقدم. من جانبه، لن يتأخر المستعمر في تبني نوعا من الأبوية سنلمَسُها من جهة في إعلان ندوة برلين سنة 1885، والتي نصت من بين ما نصت عليه على أنه "يتوجب على القوى (الاستعمارية) أن تسهر على تعليم الأهالي و جعلهم يفهمون ويقدرون مزايا الحضارة"؛ كما نلمس الأبوية نفسها، من جهة ثانية، في إنشاء حاضنة ثقافية ذات نزوع غرائبي، ستعرف أوجها مع تلك النظرة الاستشراقية التي عبّر عنها لاحقا الإنتاج الثقافي لإدوارد سعيد.

هكذا، ستسير الأفكار الجديدة المرتبطة بالهوية يدا في يد مع مسلسل تقرير المصير والاستقلال، والذي سيكون حاسما في انبعاث الهوية العربية، تلك التي سبق أن تم التعبير عنها من قبلُ بطريقة محتشمة. الهوية عينُها ستصير الآن حاضرة بطريقة أكثر وضوحا تحت مسمى "النهضة"، ذلك الانبعاث العربي الذي سيتقاطع مع تشكل هوية وطنية لم تفتأ تفرزُ العديد من التداعيات إلى غاية بداية القرن 20.

بالطريقة نفسها، وبشكل متزامن، سيصبح تشكل حركة للمعارضة الداخلية أمرا واقعا، انطلاقا من رفض الهيمنة الأجنبية، ثم نشر الأفكار الوطنية التي ستجتاح الصحافة ووسائل الاتصال. تلك الحركة المعارضة المشار إليها، سترى أن حل المشاكل التي يتخبط فيها العالم الإسلامي لن يكون بتبني النماذج الأجنبية، بل إن التخلف هو نتيجة لانحراف "الأمة" عن النهج القويم، وأنه، تبعا لذلك، تم ابتعادها عن ذلك الوعد الذي جعلها "خير أمة أخرجت للناس"؛ وتبعا لذلك، فإن مسلسل الإصلاح، بالنسبة لأولئك المعارضين، يمر عبر الانكباب على الذات والبحث في الدين الإسلامي عن أسس الهوية، مما جعلهم يتبنون خطابا دينيا يروم توحيد الجهود لإقامة حكم يقوم على مبادئ الإسلام الصرفة. يندرج في هذا الإطار ميلاد تنظيم "الإخوان المسلمين"، الذي أسسه حسن البنا سنة 1928.

ما بين كر وفر، سيستمر التعايش بين هذين التصورين المتعارضين، خصوصا مع مطلع الخمسينيات من القرن 20، عندما انتصرت الأفكار المرتبطة بالهوية الوطنية، في فترة جمال عبد الناصر، على الخطاب المعتمد من طرف الإخوان المسلمين؛ فأصبح هؤلاء، تماما كما يحدث اليوم، مطاردين، وأضحت قياداتهم في السجون، مع بروز تيارات عديدة داخل التنظيم نفسه، بتنويعات في الخطاب أكثر عمقا و تعقيدا، انطلاقا من فكر سيد قطب (1906-1966).

بيد أن هذا الواقع المتشابك لم يكن مرده فقط لعوامل داخلية، بل تكاثفت أحداث عديدة وساهمت في إنضاج تلك الظروف و تسريع تشكلها. فالهيمنة الأجنبية ستفرض نماذجها، بل و ستطلق وعودا لن تتحقق أبدا؛ مما سيهدد التوازنات الهشة السائدة آنئذ في الشرق الأوسط. ستتأثر هذه الأوضاع وتتسارع وتيرة حدوثها بقرار الإمبراطورية العثمانية الانضمام إلى المحور الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى، وهو ما يعني تورطها رسميا في تلك الوقائع الأليمة. هكذا إذن، ستقتضي المصالح أن تقلب فرنسا وإنجلترا ظهر المجن لحلفائهما في الشرق الأوسط، ضاربين عرض الحائط بالوعود التي قطعاها للعرب، والقاضية بتمكينهم من مملكة عظيمة تشمل كافة الأراضي العربية. على العكس من ذلك، مع نهاية الحرب، وانطلاقا من معاهدة سايكس بيكو (1926)، قضى التقسيم الجديد للأرض على ما تبقى من الطموحات العربية، بل حتى أولئك الذين أبدوا تعاونهم، كالملك فيصل، تم تهميشهم وإقصاؤهم من أية استفادة. كل هذه الحيثيات أسهمت في تشكل خطاب مناهض للغرب سيؤثر بشكل عميق في العديد من دعاة الإصلاح، الذين سيجدون في هذا الوضع الجديد، وفي قيام دولة إسرائيل لاحقا، بما مثلته من مصدر لكل التوترات في المنطقة، فرصة لتعميق وتطوير خطابهم، ونواةً في الوقت نفسه لبعض المطالب الاجتماعية.

أما مسلسل الاستقلال فترك المنطقة في وضع لا تحسد عليه. ذلك أن تشكل وتطور التيارات ذات الطابع الوطني والعلماني تم بموازاة وجود معارضة تركز خطابها على الهوية الإسلامية الخاصة؛ مضافا إلى ذلك الانكماش والتقوقع المطرد للأقليات المسيحية التي تعيش هناك، والتي تعد جزءا لا يتجزّأ من هوية المنطقة. فاليوم تعاني الطوائف المسيحية القبطية والنسطورية والسريانية، من بين أخريات، من تبعات هذا الوضع السياسي والثقافي البالغ التعقيد.

إن المشهد اليوم معقد جدا، وسيستمر كذلك لفترة أطول من الزمن. فكثيرة هي الوضعيات والمشاكل والأماني والمطالب والخطابات التي تتعايش كلها في منطقة ذات زخم تاريخي كثيف. لكن، ومع استحالة تحميل الغرب كل المشاكل في المنطقة، نظرا لوجود معضلات داخلية لا يمكن القفز عليها، فإنه من الممكن التأكيد على أن قدرا كبيرا من تلك المشاكل يجد مسبباته في التدخل الأجنبي المشار إليه؛ وهذه حقيقة لا يمكن التأكد منها في الشرق الأوسط فحسب، بل في العديد من المناطق الأخرى التي كانت له فيها الهيمنة، كما كان عليه الحال في تصفية الاستعمار في الصحراء و مالي، من بين مناطق أخرى. فالمصالح السياسية، كما يحدث في أغلب الحالات، يتم تقديمها على المصلحة في التعرف على "الآخر"، وفي حالة كهذه، كما في حالات أخرى، يكمنُ الدور التأكيدي للتاريخ.

دييغو ميلو كارّاسكو: كاتب شيلي معاصر، حاصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة صلمنكا بإسبانيا، مختص في تاريخ العصر الوسيط، مع اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي القديم و بالدراسات الأسيوية و الأفريقية و المغاربية. عضو بمجموعة البحث "المجتمعات العربية، الإسلامية والمسيحية" التابعة لجامعة خاين بإسبانيا، وكذلك بالجمعية الإسبانية للدراسات القرسطوية". ناشر ومساهم في عدة مجلات متخصصة، في بلده الشيلي و في أمريكا اللاتينية.

Diego Melo Carrasco

Licenciado en Historia por la P. Universidad Católica de Valparaíso; Magíster en Historia por la P. Universidad Católica de Valparaíso; D.E.A. en Historia Medieval, Universidad de Salamanca, España; Doctor en Historia, Universidad de Salamanca, España.

Su área de interés la Historia Medieval con énfasis en el estudio del Islam Clásico, al-Andalus y el Magreb. Sus estudios se enmarcan en el ámbito de la Historia de la Cultura, de las instituciones y las relaciones internacionales. Por otra parte, pertenece a las siguientes sociedades científicas: Secretario Ejecutivo de la Sociedad Chilena de Estudios Medievales; Socio de la Sociedad Española de Estudios Árabes; Miembro de MEM (Middle East Medievalist), Miembro del NEMED (Núcleo de Estudios Mediterráneos- Universidad Federal do Paraná), Miembro del Grupo de Investigación "Sociedades Árabes, Islámicas y Cristianas(HUM-761)", Universidad de Jaén, España, y miembro de la Sociedad Española de Estudios Medievales

Además es editor de la Revista Intus-Legere: Historia, Revista Cultura y Religión y Revista Chilena de Estudios Medievales. Evaluador en la Revista Sí Somos Americanos, Tiempo y Espacio, RIS (Revista Internacional de Sociología). Además es colaborador y reseñador de la Revista Studi Medievali.

Con varios artículos y capítulos de libros a su haber, estos han sido editados en Argentina, Brasil, España, Italia, Marruecos y Chile. Recientemente ha sido nombrado director de la Cátedra al-Andalus|Magreb de la Universidad Adolfo Ibáñez.

Es docente de la Facultad de Artes Liberales de la Universidad Adolfo Ibañez, en donde, además, dirije el minor en Historia y Economías de Oriente.